جـواب الأذكـياء

فـضـيلـة الـشـيـخ/

عبد الـسـلام بن صـالـح الـعـيـيري
حـفـظـه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، لا يكشف الضر سواه، ولا يدعو المضطر إلا إيَّاه، قال الله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

نعوذ به - سبحانه - من سخطه برضاه، وننزل فقرنا بغناه، ونستغفره ومن يغفر الذنوب إلا الله.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، دعا إلى الله بالحكمة فأحيا الله به الأمة، وكشف الله به الغمة، فصلوات الله وسلامه عليه.

يا رب صلِّ على النبي وآله ... ما كوكب في الجو قابَلَ كوكبًا

صلُّوا على المختار فهو شَفِيعكم ... في يوم يُبعَث كل طفلٍ أَشْيبًا

أما بعدُ:

إن الحوار والمناظرة من طرق إثبات الحق وإقامة الحجة والدعوة إلى الله - تعالى -، وقد ذكر الله - جَلَّ وعَلا - في كتابه بعض المناظرات التي وقعت بين الأنبياء وأقوامهم، فالله - عزَّ وجلَّ - بعث أنبياءه ومعهم العلم والحكمة وقوة الحجة.

فمن هذه المناظرات ما حصل بين إبراهيم - عليهِ السَّلامُ - وبين النمرود، حيث قال الله - سُبحانه -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وما حصل بينه وبين أبيه وقومه عباد الأصنام والكواكب.

ولما فسَّر الله - عزَّ وجلَّ - هذه المناظرة في سورة الأنعام قال الله - سُبحانه -: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ولما كانت المناظرات بهذه المثابة والمكانة، أردت أن أشارك في طرح أسوق فيه بعضًا من آداب المناظرات ونماذج من الردود السريعة والبديهة الحاضرة، وضَمَّنتُها بعضًا من الوقفات والتأملات مع هذه المواقف.

♦ ومما دعاني لطرح هذا الموضوع:

أولًا: أن الحوار وارد في القرآن، وله عدة صيغ.

ثانيًا: أن الأنبياء - عليهم السَّلامُ - حاوروا أقوامهم، وأوضحوا لهم الحق بدليله، وهو الموافق للعقل والفطرة.

ثالثًا: أن الأمة تحتاج مثل هذه المواقف التي مرت عبر التاريخ لتبني عليها اقتداء بأنبياء الله - تعالى - وبأصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم - وسلف هذه الأمة.

رابعًا: أن الداعية قد يفاجئ بمناظرة لم يستعد لها، أو تطرَح عليه شبهة ينعقد لسانه عندها، فإن كان عرف شيئًا من هذه الأساليب الدعوية استطاع أن يحمي ثغر الإسلام والسُّنة، فلا يؤتى الحق من قبله.

خامسًا: أن الدعوة للحوار بين الحضارات والأديان والمذاهب المختلفة أصبحت تلقى رواجًا بين أوساط المثقفين والمفكرين، فحري بأهل الحق أن يتحصنوا بمثل هذه التنبيهات.

وقد جمعت من كتب متفرقة شتات هذا الموضوع، وذكرت شيئًا من أخبار العلماء والأدباء والخلفاء والنساء.

أسأل الله - تعالى - أن ينفع بها، وأن يبارك لنا في أعمارنا وأعمالنا، وأن يجعلنا هداةً مهتدين.

ثم أشكر - بعد شكر الله عزَّ وجلَّ - كل من ساهم لإقامة هذه المحاضرة.

وأدعو للجميع بالمغفرة والرحمة والرضوان، وأن يجمعنا بهم في أعلى الجنان.

ثم إلى الشروع في المقصود، وبالله التوفيق، وهو المستعان، وعليه التكلان.

- **آداب المناظرة:**

من الآداب التي على المناظر أن يتحلى بها؛ لئلا تتحول المحاضرة إلى مماراة فارغة.

الأدب الأول: الإخلاص، وأن يقصد بكلامه التعبد لله - تعالى - وإرشاد العباد إلى ربهم.

الأدب الثاني: أن تكون عنده رحمة يرحم بها الخلق، ولا يستعلي عليهم؛ لأنه تعلم ما لم يعلموا، وليتذكر قول الله - سُبحانه -: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

الأدب الثالث: أن يحرص على الدعاء؛ إذ هو مفتاح ما انغلق من الأمور.

الأدب الرابع: الصبر والتحمل لهذا الخصم، وعدم التأثر بما يقول الجهال.

الأدب الخامس:أن يكون فقيه النفس، يطيل في موضع الإطالة ويوجز في موضع الإيجاز.

البَسْ لكلِّ حالةٍ لبوسَها إما نعيمها وإما بُؤْسَها

والعبرة ليست بكثرة الكلام، إنما بالبرهان والحجة والوضوح.

الأدب السادس: عدم الانتقال من نقطة إلى أخرى إلا بعد إشباع النقطة الأولى والانتهاء منها، فمن صفات بعض أهل البدع أنه كالزئبق: لا يستقر على حال، ولا يريد سماع الصواب، ولا الاعتراف به. فهو يتنقل من زاوية لأخرى ليضل الناس على الحق.

الأدب السابع: الحذر من اتباع الهوى، وليكن الحق دليلك ومطلوبك.

الأدب الثامن: الفرح بفضل الله - تعالى - إذا وُفق بالصواب، وأن يلهج بالشكر والحمد لله - عزَّ وجلَّ -، وألا يكون لسان حاله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. إنما يكون لسان حاله: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨].

تاسعًا: ألا يقصد إظهار علمه أو إفحام خصمه، قال الله - تعالى -: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الأدب العاشر: أن تستمع لما يقوله من يقابلك، فإذا انتهى من كلامه لك أن تذكر المآخذ عليه، وألا تقاطع، ولا ترفع صوتك؛ لأن الصراخ على قدر الألم.

الحادي عشر: أن تعترف بالحق إذا جاء به خصمك ولو كان عدوًّا للإسلام.

الأدب الحادي عشر: أن تسأل المحاور أسئلة يجيب عنها بنعم أو لا، ثم يفصل إذا أراد؛

لئلا يتشعب ويخرج عن الموضوع ثم يفوت المقصود.

الأدب الثاني عشر: ألا تذكر العبارات الجارحة أو الكلمات السوقية؛ لأن الحق سيعلو، والله - تعالى - ناصر دينه ومعلٍّ كلمته، وما أنت أيها المناظر إلا أداة صالحة للدين.

الأدب الثالث عشر: ألا تتكلم إلا بما تعرف، وليس عيبًا أن تقول: لا أدري.

ومن الآداب أيضًا: الابتعاد عن التعقيد والتقعر في الكلام، فالكلام البليغ ما بلغ العقول والقلوب، ومنها أن تذكر الدليل ووجه الاستدلال ومن روى الحديث إن استطعت؛ لئلا يكون الكلام إنشائيًّا فارغًا.

الأدب الرابع عشر: ألا تترك أي شبهة تُعرض إلا وتجيب عنها في مكانك؛ لأن في تأخير الجواب مفسدة لبعض السامعين.

ومن الآداب أيضًا: عدم التسرع في الإجابة؛ لئلا تقع في فخ أهل البدع، قال الخليل ابن أحمد - رَحِمَهُ اللهُ - منشئ علم العروض: ما أجيب بجواب حتى أعرف ما فيه من الاعتراضات والمؤاخذات.

ومن آداب المناظرات: ترك التعصب للمقالات والشيوخ والبلدان، إنما الحق ما في كتاب الله وسنة رسوله - صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم -.

الأدب الأخير: ألا يقدم على المناظرة إلا المدرك المتبحر المحيط بمسائل كثيرة في العلم؛ لئلا يوهن الحق لضعفه، سُئل الإمام مالك عن مناظرة أهل الأهواء؟ قال: أما للمستبحر فنعم، وأما غيره فلا؛ لأن ذلك وهنٌ للدين. انتهى كلامه - رَحِمَهُ اللهُ -.

ولْيعلم أنه لا يصلح كل عالم أو طالب علم للمناظرة أو المواجهة؛ إذ هذه فضائل ونفحات يسوقها الله - عزَّ وجلَّ - لمن شاء من عباده لهداية الخلق والدلالة على الحق: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣].

قال أبو جعفر المنصور لإسحاق بن أسلم، وهو قائد من قواد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، قال له أبو جعفر: لقد أفرطت يا إسحاق في وفائك لبني أمية. فقال: يا أمير المؤمنين، من وفَّى لمن لا يرجى كان لمن يرجى أوفى. فقال له: صدقت.

دخل المعتصم على رجل يزوره في مرضه، فقال المعتصم لابن هذا المريض: أيما أحسن دار أمير المؤمنين أم دار أبيك؟ فقال هذا الصغير: ما دام أمير المؤمنين في دار أبي فدار أبي أحسن.

قال إياس بن معاوية بن قرة القاضي الذكي: ما خاصمت أحدًا من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية، قلت لهم: أخبروني عن الظلم ما هو؟ قالوا: هو أخذ ما ليس له. قلت: فإن لله كل شيء. فانقطعوا عن المناظرة.

سأل رجل عبد العزيز بن جعفر المعروف بغلام الخلال عن قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] من هو؟ فقال: هو أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عنهُ -. فرد عليه هذا السائل، وقال: لا، بل هو علي - رَضِيَ اللهُ عنهُ -. فهَمَّ به أصحابه فقال لهم: دعوه، ثم قال له: اقرأ ما بعدها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٤، ٣٥]. وهذا يقتضي أن يكون هذا المصدِّق ممن له إساءات سابقة، وعلى قولك أيها السائل: لم يكن لعلي إساءات سابقة. فقطعه بهذا الجواب.

ومما ذُكر في كتاب عيون المناظرات: ناظر مسلم طائفة من النصارى في مسألة النسخ، هل هي واقعة أم لا؟ فادعت النصارى امتناع النسخ للشرائع والأحكام، فقال لهم هذا المسلم: أتقرون أن أولاد آدم - عليهِ السَّلامُ - الذين خرجوا من ظهره كانوا يتزوجون أخواتهم؟ قالوا: نعم، وقصة قابيل وهابيل في ذلك شهيرة. قال: فما حكم إنجيلكم؟ قال: تحريم ذلك علينا. قال: هذا هو حقيقة النسخ من غير مزيد. فانقطعوا عن إكمال المناظرة.

من المناظرات التي حفظها لنا التاريخ ما وقع لعبد الله بن عباس - رَضِيَ اللهُ عنهُما - مع الخوارج، لما خرجوا على علي - رَضِيَ اللهُ عنهُ -، أرسل علي لهم هذا العالم ابن عباس، فناظرهم، وهدى الله - عزَّ وجلَّ - به ثلث الجيش، وهذه المناظرة ذكر بعضها الشاطبي في الاعتصام والسيوطي في الإتقان.

وذكر الشاطبي أيضًا في الاعتصام قصة لشيخ من أهل العلم أُتِي به لمجلس الواثق الخليفة العباسي، فهداه الله - عزَّ وجلَّ - به وهدى به الخليفة المهتدي لما كان وزيرًا ويسمع كلام هذا المناظر، ثم تركوا امتحان الناس بالقول بخلق القرآن.

وذكر أيضًا الشاطبي في الاعتصام مناظرة لابن العربي المالكي مع طائفة الإسماعيلية، وكيف تخلص بذكائه من مكرهم.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -، فله مناظرات كثيرة طويلة أمام الناس، وقد جابه عدة طوائف وغلبهم وكسرهم؛ مما سبَّب كثرة أعدائه وسبب تحرك قلوب حاسديه، فلم يستطيعوا أن يغلبوه إلا بالسجن، فمات سجينًا - رَحِمَهُ اللهُ -.

ومن مناظراته ما حصل منه مع طائفة البطائحية، وهم من غلاة الصوفية من الطائفة الرفاعية، وقد فصلها - رَحِمَهُ اللهُ - كما في الفتاوى في المجلد الحادي عشر. ولقوة حجة شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - كثر الكذبة عليه؛ لأنهم لا يصلون إلى مقصودهم إلا بالدجل والتزوير.

ومن العلماء الذين لهم قَدَم سَبْق في هذا الباب العلامة محمد ناصر الدين الألباني - رَحِمَهُ اللهُ -: (اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون. الحق أقول: لست بذاك الموصوف، وإنما أنا طالب علم لا شيء آخر، وعلى كل طالب أن يكون عند قول النبي - صَلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسَلَّم -: «بلغوا عني ولو آية»).

حيث ناظر بعض طائفة الأحباش والعقلانيين، وناظر بعض أتباع العقائد الفاسدة، وله بعض الأشرطة المسجلة من مجالسه.

ومن العلماء الذين لهم باع في المناظرات الشيخ إحسان إلهي ظهير - رَحِمَهُ اللهُ -: (لكنه لا ينبغي لشخص أن يعرف قول رجل ثم يعرف قول رسول الله يعارضه، أو نصًّا من نصوص القرآن تخالفه).

حيث صارت له دربة وله فيها ملكة، وله مناظرة مع القديانية ذكرها في أول كتابه عنهم، وله مناظرة مع أحد زعماء الرفاعية الطائفة الصوفية في مدينة سامراء في العراق، وإليكم أحبابي الكرام نبذة من هذه المناظرة:

هذه الطائفة الصوفية طائفة الرفاعية تتدعي حصول الكرامات لهم وعدم تأثير السلاح، ونحو ذلك من هذا الهراء.

يقول الشيخ إحسان: وقد حدث لنا شخصيًّا سنة خمس وستين وتسعمئة وألف ميلادية في مدينة سامراء المليئة بالرفاعيين في بيت أحد السادة الأشراف، مثل ما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية، بعدما كان السؤال لأحد زعمائهم - أي الرفاعية في تلك المدينة -: إن كان السلاح والرماح والسكاكين لا تؤثر فيكم، فلماذا لا تذهبون إلى جبهة القتال والعراق في أشد الحاجة وأمسها إلى أمثال هؤلاء الذين لا يؤثر فيهم الرصاص وغيره من الأشياء.

كما نازلته وتحديته بأنه لو أعطاني المسدس في يدي وأُطلق الرصاص بنفسي، فحينئذٍ أرى هل يؤثر ذلك عليه أو لا يؤثر. فلم يسعه إلا الفرار والإنكار.

وذلك القول الذي قالوه أمام شيخ الإسلام ابن تيمية بأن هذه الكرامات لا تظهر أمام المنكرين.

♦ فائدة في زاد المعاد:

قال الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - في زاد المعاد، في فوائد قصة وفد نصارى نجران، قال: (من الفوائد: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة).

⇦ **تنبيه:**

وإليكم هذا التنبيه حول المناظرات: مما يُعلم من حال شيوخ أهل البدع أنهم لا يقبلون المناظرة العلنية أمام الناس؛ لئلا ينقطع أحدهم فيسقط جاهه أمام أتباعه، لأن الأتباع لعلماء البدع لا يسألون أئمتهم ولا يحاورونهم، وهم لا يرضون بذلك أن يُسألوا، مما سبَّب تراجع عدد منهم - ولله الحمد -.

من المناظرات التي وقعت في التاريخ، ما وقع للإمام جعفر بن محمد الصادق - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - لما ناظره رافضي يقدح في أبي بكر، فناظره حتى تاب. وهذا موجود في ترجمته في الكتب المعتمدة.

ومن المناظرات العجيبة التي وقعت في التاريخ: ما حصل بين الباقلاني وبعض النصارى بحضرة ملكهم.

وأبو بكر الباقلاني عنده ذكاء، وهو ذو دهاء وفطنة، قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى مذهب الأشعري، ليس فيهم مثله ولا قبله ولا بعده.

ونقل عنه شيخ الإسلام في الحموية مقالات في الأسماء والصفات تدل على أنه على منهج السلف في هذا الباب.

قال عنه الذهبي - رَحِمَهُ اللهُ تعالى -: كانت جنازته مشهودة، وكان سيفًا على المعتزلة والرافضة والمشبِّهة، وغالب قواعده على مذهب أهل السُّنة.

♦ مناظرة الباقلاني:

أما خبر هذه المناظرة التي وقعت بين أبي بكر الباقلاني وبين علماء النصارى: فقد أرسله حاكم بلده إلى ملك الروم، فتوجه إليهم وناظر علماءهم في عدة مجالس، أظهره الله عليهم ورد شبهاتهم وبين فساد أقوالهم، وخاف علماؤهم على النصارى أنه إن بقي بينهم أبو بكر الباقلاني ألا يبقى على دين النصرانية أحد؛ لعظيم علمه وسعة ذكائه.

وقبل أن يسير لرحلته المباركة، قال له أحد الوزراء ممن كان يعتني بالتنجيم: سألت المنجمين عن رحلتك يا أبا بكر أهي ميمونة أم مشئومة؟ فلما سمع القاضي أبو بكر هذا الكلام، بيَّن له

فساد هذا العلم، وأن الله - عزَّ وجلَّ - هو المقدِّر المدبر، فسكت الوزير ودعا المنجِّم الأكبر منجم الحاكم وبيَّن له القاضي فساد صنعته، وأن هذا الأمر محرم، فلما أكثر عليه القاضي أبو بكر قال هذا المنجم الأكبر: ليست المناظرة من شأني، إنما أخبرك بالنجوم.

أما تعليل هذه العلوم والمناظرة حولها، فهي لأبي سليمان المنطقي، وسمي بهذا لاهتمامه بعلم المنطق، فأحضِر أبو سليمان فناظره الإمام أبو بكر الباقلاني، فقال المنطقي: أنا لا أعرف مناظرات هؤلاء القوم. فقال الوزير: الحق أبلج، سر في رعاية الله - عزَّ وجلَّ -.

ثم أختار لكم أيها الأحباب بعض أحداث هذه المناظرة وهي طويلة، وقد استمرت في عدة أيام في عدة مجالس:

فقبل الدخول على ملك الروم قيل لأبي بكر الباقلاني: لا تدخلوا عليه إلا بنزع عمائمكم وأخفافكم. فامتنع - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - وقال: إني أدخل على الخلفاء وعلى الملوك بهيئتي ولباسي، فامتنع وشدد في الأمر، وقال: إن كان يريد أن يقابلنا على ما نريد، أو يكتب لنا جوابًا ونذهب. فرضي الملك ورفع شأنه، ثم كان الناس يقبلون الأرض بين يدي ملك الروم ويسجدون له، وأنه من تحايله وضع بابًا قصيرًا حتى ما يدخل معه أبو بكر الباقلاني إلا وهو راكع، فانقدح في ذهن أبي بكر على البديهة أول ما قدم على الملك أن يدخل على قفاه يحبو حبوًا، ثم لما انتهى من الباب التفت وقابل وجه الملك؛ لئلا يسجد للملك. فوقعت له في قلوبهم هيبة عظيمة؛ لأنه عظَّم الله - عزَّ وجلَّ - فعظَّمه الخلق.

ومما وقع في هذه المناظرة، قال الإمام ابن كثير: ويقال: إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل ليستفز عقله بها، وهي آلة لا يسمعها أحد قط إلا طرب شاء أم أبى، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك وأن يضعف أمام هذه الآلة من آلات الطرب، فتذكر أمرًا حتى يشغل باله عن هذا الطرب، فجرح رِجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة والتحرك لهذا الطرب. فعجب الملك من ذلك، ثم إنه اكتشف الأمر فإذا أبو بكر الباقلاني قد جرح نفسه بما أشغله عن الطرب، فتحقق الملك من وفور همته وعلو عزيمته.

ومما حصل في هذه المناظرة أن الملك قال له: هذا الذي تدعونه في معجزات نبيكم محمد من انشقاق القمر كيف هو عندكم؟ يقول القاضي أبو بكر: قلت: هو صحيح عندنا، وانشق القمر على عهد رسول الله - صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم - حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحاضرون ومن اتفق نظره في تلك الحال. فقال الملك: وكيف ولم يره جميع الناس؟ فقال أبو بكر: لأن الناس لم يكونوا على أُهبة ووعده لشقوقه وحضوره. فقال: هذا القمر بينكم وبينه نسبة أو قرابة؟ بأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموها أنتم خاصة، وقد علمتم أنه في السماء غير مختص بكم، فهو لجميع الناس. فقلت له: أيها الملك، هذه المائدة التي أنزلها الله - عزَّ وجلَّ - على عيسى، هل بينكم وبينه نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم. فتحير الملك وقال في كلامه: سبحان الله!

وفي مجلس آخر قال أحد علمائهم للقاضي أبي بكر: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ يعني عائشة.

فقال القاضي مجيبًا على البديهة: هما امرأتان ذُكرتا في التاريخ بسوء؛ مريم وعائشة، فبرأهما الله -عزَّ وجلَّ -، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأتِ بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج.

يعني أن عائشة أولى بالبراءة من مريم، وكلاهما بريئة مما قيل فيهما، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة في عائشة، فهو إلى مريم أسرع، وهما بحمد الله بريئتان مما وُصفتا به بوحي الله - عزَّ وجلَّ -.

وفي المجلس الأخير بين أبي بكر الباقلاني والملك وبعض علماء النصارى، دعى إليه أعلم علمائهم والقيم على الديانة النصرانية في عصرهم، فلما اجتمعوا في مجلس الملك رحب القاضي بهذا القائد النصراني، وسأله أحفل سؤال ورحب به، وقال له القاضي: كيف الأهل والولد؟ فعظم قوله هذا عليه وعلى جميع النصارى، وتغيروا له وصلبوا وجوههم وأنكروا قول أبي بكر عليه؛ لأنهم لا يرضون أن ينسب الولد لرهبانهم وعُبادهم، وأنه هذا من التعبد لله - عزَّ وجلَّ - وهو الامتناع عن الزواج. فقال القاضي: وما أنكرتم من كلامي؟ فقال الملك: إنا ننزه هؤلاء عن

الصاحبة والولد. فقال القاضي: يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتربئون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم - عزَّ وَجْهُه - فتضيفون ذلك إليه؟! سوءة لهذا الراهب، ما أبين غلطه! فسُقط في أيديهم وبُهتوا وانكسروا ولم يُحيروا جوابًا، ودخلوا في قلوبهم منه هيبة عظيمة.

ثم إن الملك قال لقائدهم النصراني: ما ترى في أمر هذا الشيطان الذي جاء من بلاد المسلمين؟ فقال: عليك أن تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه، وتبعث بالهدايا إليه، وتخرِج هذا العراقي عن بلدك من يومك إن قدرتَ، وإلا لم آمن الفتنة به على النصرانية.

ففعل الملك ذلك، وأحسن جواب الحاكم، ورد إليه هداياه، وعجَّل إخراج القاضي أبي بكر من بلده، وبعث معه عدة من أسرى المسلمين والمصاحف، ووكَّل بالقاضي من الجند الروم من يحفظه حتى يصل إلى بلده.

فرحمه الله رحمة واسعة، وهو كما قيل فيه في الرثاء:

انظُرْ إلى جبلٍ تمشي الرِّجالُ به وانظر إلى القَبر ما يَحوي من

وانظر إلى صارِمِ الإسلام مُنْغَمدًا وانظر إلى دُرَّةِ الإسلام في الصَّدَفِ

فرحمة الله - عزَّ وجلَّ - على أبي بكر الباقلاني، وجمعنا وإياه في الفردوس الأعلى.

ومن التفنن في هذا الباب في المناظرات: أن العلماء كانوا يجعلون مناظرات مؤلَّفة مفتعلة في المفاضلة بين السماء والأرض، والسيف والقلم، والنخل والزيتون، كما كان يفعل ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ -، وسار على طريقته العلامة عبد الرحمن السعدي في كتابه المختصر: في المناظرات الفقهية، بينما يرجح قول الحنابلة ومن يرى القول الآخر.

ومن الإجابات السريعة:

وقال بعض معلمي اللغة: حضرت لتعليم المعتز وهو صغير، فقلتُ له: بأي شيء نبدأ؟ قال: بالانصراف.

يريد أن يقول: باب الموانع من الصرف.

قال محمد بن يحيى مؤدِّب المأمون: صليت يومًا قاعدًا لمرض أصابني، فأخطأ المأمون - وهو صغير يتعلم عند محمد بن يحيى - فقمت لأضربه. فقال: أيها الشيخ، تطيع الله قاعدًا وتعصيه قائمًا.

قال شخص لآخر: جئتك في حُوَيْجة؟ فقال: اقصد بها رجيلًا.

قال الضحاك بن مزاحم للنصراني: لو أسلمتَ؟ فقال: ما زلت محبًّا للإسلام، إلا أنه يمنعني حب الخمر. فقال: لا بأس، أسلم واشربها. فلما أسلم قال له: أسلمتَ، وحينئذ إن شربت حددناك، وإن رجعت عن الإسلام قتلناك. فحسن إسلامه.

وقد أخبرني أحد الإخوة من الذين درسوا في البلاد النصرانية أكثر من عشر سنوات من تعلم الطب، قال: إنه دعى كثيرًا من النصارى للدخول في الإسلام، ومن أسباب امتناعهم عن الدخول فيه حب الخمر، مما يُعلم أن هذه الأمة الإسلامية محبة للخمر وللفواحش، وهو أمر معروف معلوم بينهم.

جاء فقير بقمح يطحنه، فقال الطحان: إن عليَّ شغلًا كثيرًا فترفقْ. فأبى، فقال: لئن لم تطحنه دعوتُ الليلة عليك، فيهلك الله - تعالى - دوابك. فقال له الطحان: دعاؤك مستجاب؟ قال: نعم. قال: فادعُ الله أن يجعل قمحك طحينًا!

ومن الإجابات المحرجة السريعة:

كان إسحاق بن فروة مزَّاحًا، فقال لأعرابي يومًا يمازحه: أتشهد على شيء لم تره عينك؟ فقال الأعرابي: نعم، أشهد أن أباك فعل بأمكِ، ولم أرَ ذلك. فحلف إسحاق ألا يمازح أحدًا.

جاء رجل إلى فقيه، فقال: أفطرت يومًا من شهر رمضان؟ فقال: اقض يومًا مكانه. فقال: قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها فأكلت. فقال: أرى ألا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك.

يقول إياس بن معاوية الفقيه القاضي الذكي: إن أول شيء حكي عني لما كنت صغيرًا أني كنت أتعلم في مكتب رجل من أهل الذمة، فاجتمع إليه أصحابه من النصارى، فقالوا: ألا تعجبون من أهل الإسلام، يقولون: إنهم يأكلون في الجنة ولا يتغوطون؟ فقلت: يا معلم، أليست الدنيا ضرت الآخرة؟ قال: بلى. قلت: كل ما يؤكل في الدنيا يخرج غائطًا؟ قال: لا. قلت: فأين يذهب؟ قال: يذهب بعضه غذاءً وبعضه يخرج. قلت: فما تنكر إذا كان بعضه يذهب في الدنيا غذاء أن يكون كله في الجنة غذاء؟! قال: فألوى بيده وقال: قاتلك الله من صبي.

قيل لبشَّار بن بُرد: إن فلانًا يزعم أنه لا يبالي بلقاء واحد أو ألف في القتال؟ فقال: صدق؛ لأنه يفر من الواحد كما يفر من الألف.

⬇ ومن الأمور المتعلقة بالمناظرة والجدال والحوار، أُبين لكم - إخواني الكرام - المذموم والمحمود من الجدال:

إن فن المناظرة وآداب الحوار وأدب الاختلاف اعتنى بها أكابر العلماء ونُظار الفقهاء، ولذا فقد ألَّف بعضهم في آداب البحث والمناظرة والجدال، وقد جاء فيها عن السلف أقوال فيها تحذير من الجدال، ولعلها تُحمل على الجدال المذموم الذي فيه رجاج وخصومة، مع حمق وقلة علم.

قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل.

- وقال معروف الكرخي: إذا أراد الله بعد شرًّا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل. وكذا قال الإمام الأوزاعي.
- وقال الإمام مالك: ليس هذا الجدل من الدين بشيء. انتهى كلامه.

فمن كان همه رد الحق وإظهار الباطل وتزيينه فهو المذموم، ومما يدل على ما ذكرت قول الله - سُبحانه -: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الجدال المحمود، فهو الذي يكون طريقًا للدعوة إلى الله وإظهار الحق وتزيينه، وإبطال الباطل وتزييفه، قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فائدة:

كان أئمة السلف يمنعون من مناظرة أهل البدع ومحاورتهم لغلبة الحق وشيوعه وكثرته وتعظيم الناس للحق، فلما غلب شر أهل البدع وازَّينت في قلوب بعض الناس، نزل العلماء لمقابلة الشبهات بالحجج القوية البينة، فهذا التاريخ يشهد على مناظرات وقعت بين عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللهُ عنهُما - وبين الخوارج، وبين الإمام أحمد وأهل البدع في قضية خلق القرآن، ولم يقدروا عليه إلا بالسجن.

ردود متفرقة:

ثم في ختام هذه المحاضرة أذكر وقائع متفرقات: أمر عبد الملك بن مروان أن يُعمل باب لبيت المقدس ويُكتب عليه اسمه، وسأله الحجاج أن يَعمل له بابًا ويَكتب عليه اسمه أيضًا، فأذن له. فاتفقا أن صاعقة وقعت فاحترق منها باب عبد الملك وبقي باب الحجاج، فعظم ذلك على عبد الملك، فكتب إليه الحجاج: بلغني أن نارًا نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم إذ قرَّبا قربانًا فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر، فسُرِّيَ عنه لما وقَف على هذا الكلام.

صعد سليمان بن عبد الملك - أو الوليد بن عبد الملك - يوم جمعة على المنبر فسمع صوت ناقوس، فقال: ما هذا؟ قالوا: البيعة يا أمير المؤمنين. فأمر بهدمها فهُدمت. فبلغ ذلك ملك الروم، فكتب إليه: إن هذه البيعة أقرها من كان قبلك، فإن كانوا أصابوا فقد أخطأت، وإن تكن أصبت فقد أخطئوا. فسأل سليمان - أو الوليد - من خواص دولته الجواب، فلم يستطيعوا أن يجيبوا. فقال الفرزدق: عن إذن أمير المؤمنين؟ فقال: قل. قال: اكتب له ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. فسُر بذلك سليمان وأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومما ذُكر في ذكاء أم الشافعي أنه أم بشر شهدت هي وأم الشافعي عند الحاكم، فقال الحاكم: فرِّقوا بينهما. فقالت: ليس ذلك لك؛ لأن الله - تعالى - قال: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فسكت الحاكم.

كان رجل يدعي الشعر ولا يهتم به قومه، فقال لهم: إنما تستبردونني بسبب الحسد؟ فقالوا: بيننا وبينك بشار العقيلي أحد الشعراء، فارتفعوا إليه، فقال له: أنشدني، فأنشده. فلما فرغ قال له بشار: إني ما أظنك من أهل بيت النبوة. قال له: وما ذلك؟ قال: لأن الله - تعالى - يقول في كتابه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

ومن بداهة علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنه سُئل: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرة عددهم.

ومن ذكاء المغيرة: استعمل عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عنهُ - المغيرة على البحرين، فكرهه بعض أهلها من المجوس وشكَوا منه، فعزله، فخافوا أن يعيده عليهم، فجمعوا مئة ألف فأحبرها أحد كبارهم إلى عمر، فقال هذا المرسَل منهم: إن المغيرة أخذ هذه فأودعها عندي وهي من خزائن المسلمين. فسأله، فقال المغيرة: كذب، إنها كانت مائتي ألف. قال: وما حملك على ذلك؟ قال: كثرة العيال. فسُقط في يده، فتحير ذلك المرسَل فحلف وأكد الأيمان أنه لم يودع عنده قليلًا ولا كثيرًا. فقال عمر للمغيرة: ما حملك على ذلك؟ قال: إنه افترى عليَّ فأردت أن أخزيه.

ومما قيل: دخل عروة بن الزبير بستانًا لعبد الملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت أحسن منه، هذا يؤتي أكله كل حين، وأنت تؤتي أكلك كل يوم.

قال الحجاج بن يوسف حين قيل له: لمَ لا تعدل مثل عمر - رَضِيَ اللهُ عنهُ - وأنت قد أدركت خلافته، ألم تر عدله وصلاحه؟ فقال في جوابهم: تبذروا أتعمر لكم. أي: كونوا كأبي ذر في الزهد والتقوى أعاملكم معاملة عمر في العدل والإنصاف.

وفي أول تاريخ الخلفاء للسيوطي في ذمه للخلفاء العُبيديين بمصر قال: وكتب العزيز العُبيدي إلى الأموي صاحب الأندلس كتابًا سبَّه فيه وهجاه. فكتب إليه الأموي: أما بعدُ، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك. فاشتد ذلك على العُبيدي فأفحمه على الجواب، يعني أنه دَعِيٌّ لا تُعرف قبيلته، وإنما سماهم بالفاطميين جهلة العوام، وإلا فجَدُّهم مجوسي.

قال القاضي عبد الجبار البصري: اسم جد الخلفاء المصريين العُبيديين، اسم جدهم سعيد، وكان أبوه يهوديًّا حدادًا.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: القَدَّاح جَد عُبيد الله الذي يسمى بالمهدي كان مجوسيًّا، ودخل عبيد الله إلى المغرب وادعى أنه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وسماهم جهلة الناس الفاطميين... إلى آخر ما قال السيوطي - رَحِمَهُ اللهُ - في القدح بهم وبنسبهم في أول تاريخ الخلفاء.

ومن سرعة البديهة قال المنصور العباسي يومًا للربيع: ويحك يا ربيع، ما أطيب الدنيا لولا الموت. قال له: ما طابت إلا بالموت. قال: وكيف ذلك؟ قال: لولا الموت لم تقعد هاهنا ولم تصر حاكمًا. قال: صدقت.

ورأى الإسكندر المقدوني سَميًّا له لا زال ينهزم ويجبن في مواقف الشجاعة، فقال له: يا رجل إما أن تغير اسمك أو أن تغير فعلك.

وقصد الإسكندر موضعًا يريد أن يقاتل أهله، فخرج لحربه جيش من النساء فكف عنهن، فلما سئل عن ذلك قال: هذا جيش كسره ليس بفخر، ونصره فضيحة الدهر. يعني أنه إن انتصر عليهن فهذا ليس بفخر، وإن انتصرن عليه صارت عليه فضيحة الدهر.

وفي كتاب الأوائل للسيوطي: أن الإسكندر المقدوني لما مرض وتيقن ارتحاله، كتب لأمه يعلمها بحقيقة حاله، وأن تعمل إذا نزل به الموت وليمة لا يحضرها من أصيب بمصيبة أليمة. فلم يحضرها أحد، فكانت أعظم تسلية على فقدِ ولدها.

قيل لبعض الملوك: إن فلانًا سيئ النية نحو الملك، فقال: إن الله - تعالى - تجاوز عن النية وهو يعلمها، فكيف لا نتجاوز عنها ونحن لا نعلمها؟!

حضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك، فجعل يمر إلى ما بين يديه، فقال له الحاجب: كل مما يليك يا أعرابي. فقال: من أجْدَب انتَجى، يعني من حصل له الجدب بحث عن الربيع. فشق ذلك على سليمان، وقال للحاجب: إذا خرج هذا الأعرابي فلا يعد إلينا.

وشهد بعد هذا سفرته أعرابي آخر، فكان يأكل مما يلي يدي سليمان بن عبد الملك. فقال له الحاجب: مما يليك فكُلْ يا أعرابي. فقال: من أخصب تخير. فأعجب سليمان بهذا الجواب، فقربه وأكرمه وقضى حوائجه.

ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا إنه قد نُهي عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك، ولكن ذكَّرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرًا. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه.

قال الحجاج لرجل من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث: واللهِ إني لأبغضك. فقال الرجل: أدخل الله أشدنا بغضًا لصاحبه الجنةَ. يعني أني أشد منك بغضًا، فأنا أدعو لنفسي بالجنة.

ولمدعي النبوة عجائب وغرائب لا بد أن تُجمع، فأذكر منها: أنه أُتِي المأمون برجل ادعى النبوة، فقال له: ما اسمك؟ فقال: أنا أحمدُ النبيُّ. فقال له: لقد ادعيت زورًا، ثم أمر به ليُضرب. فلما رأى الرجل الأعوان قد أحاطت به، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمدُ النبيَّ، فهل تذمُّه أنت؟ فتدارك المأمون وعلم أن هذا الرجل لم يدع النبوة.

دخل رجل إلى المسجد ليصلي، وانتظره رفيقه بالخارج، فأطال الداخل إلى المسجد إطالة، فلما خرج قال له رفيقه الذي بالخارج: ما الذي أمسكك داخل المسجد؟ قال له: الذي أمسكك خارج المسجد هو الذي أمسكني داخل المسجد.

⬇ ومن أمثلة حسن التصرف:

ومن حسن التصرف: كان بعض الملوك لا يعقد لواء الغزو في الأندلس إلا بمسجد قرطبة، فصادف أن عقده هناك وجَيَّش الجيوش من ذلك المسجد، فعلق العلم واللواء بثُرَيّ المسجد

فوقعت وانكسرت وسقط منها الزيت على العَلم. فتطيَّر الأمير وخاف من الشؤم، فقال له بعض الحاضرين: لقد بلغت أعلامك الثريا أيها الأمير وسقاها الله من شجرة مباركة، فطِب نفسًا، فستُحمد هذه الغزوة، وسينصرك الله - عزَّ وجلَّ -. فكان كما قيل، وحصل النصر من الله - تبارك وتعالى -.

كتب بعض ملوك فارس على بابه: تحتاج أبواب الملوك إلى عقل ومال وصبر لمن قدِم عليهم. فكتب بعضهم تحته: من كان عنده واحدة من هذه الثلاث؛ العقل والمال والصبر، لم يحتج إلى أبواب الملوك. فرُفع خبره إلى الملك، فقال: أحسنت، وأمر بإجازته، ومحا الكتابة من الباب.

وقيل: إن كسرى أنو شروان مر على شيخ يغرس من شجر الزيتون، فقال: ليس هذا أوان غرس في الزيتون؛ لأنه شجر بطيء الثمر وأنت شيخ هرم. فقال: أيها الملك قد غرس من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا. فقال كسرى: أحسنت. وكان إذا قال: "أحسنت"، يعطي من قالها له أربعة آلاف درهم، فدُفعت له. فقال: أيها الملك كيف رأيت غرسي؟ فما أسرع ما أثمر! يعني أنه أثمر العطية التي أخذها من الملك. فقال: أحسنت، فزاده أربعة آلاف. فقال: يا أيها الملك كل شجرة تثمر في كل عام مرة، وشجري أثمر في ساعة واحدة مرتين. فقال: أحسنت، فزِيد مثلها. فمضى كسرى وخرج من عنده وقال: انصرفوا، فلئن وقفنا لم يكفه جميع ما في الخزائن.

صحب أحد الملوك البطاشين وزيره في رحلة صيد، فضرب الملك صيدًا ورمى عليه فأخطأه، فقال له الوزير: أحسنت. فنظر إليه الملك نظرة منكَرة، فقال له: يا سيدي أحسنت إلى العصفور لإبقاء حياته. فما تمالك الملك أن ضحك.

وقيل لرجل: إنك سافرت مع الأمير إلى اليمن، فما ولاك من الولايات بعدما رجعت معه؟ فقال: ولاني قفاه.

الإمام أبو حنيفة:

ومن أصحاب العقل والذكاء والفطنة والبداهة الإمام أبو حنيفة - رَحِمَهُ اللهُ -.

دعى أبو جعفر المنصور الإمام أبا حنيفة، فقال الربيع صاحب المنصور - وكان عدوًّا لأبي حنيفة - قال: يا أمير هذا أبو حنيفة يخالف جدك، كان عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللهُ عنهُما - يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء، وأبو حنيفة يقول: لا يجوز الاستثناء إلا متصلًا باليمين. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أنه ليس لك في عنق جندك بيعة. فقال: كيف؟ قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم. فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة. فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي؟ فقال: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي.

ودعى أبو جعفر المنصور الإمام أبا حنيفة إلى القضاء، فأبى عليه فحبسه، ثم دعى به فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال أبو حنيفة: أصلح الله الأمير، أنا لا أصلح للقضاء. فقال له: كذبت، ثم عرض عليه مرة أخرى. فقال أبو حنيفة: قد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنني كذاب، فإن كنت كذابًا فلا أصلح للقضاء، وإن كنت صادقًا فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح. فرده في الحبس.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ذكر بعض الفقهاء من لطائف المفتي أبي السعود: أنه سئل عن الخزانة والقصعة، أيقرآن بالفتح أو بالكسر؟ هل يقال: الخَزانة والقِصعة؟ فأجابه بقوله: لا تفتح الخِزانة ولا تكسر القَصعة.

♦ وما قيل من مناظرات أبي حنيفة:

أنه دخل جماعة يناظرون الإمام أبي حنيفة بالقراءة خلف الإمام؛ لأنه لا يرى القراءة خلف الإمام كما هو مذهب أكثر أهل العلم. فقال لهم: أكلكم تتكلمون أم تنتخبون واحدًا منكم؟ قالوا: بل نقدم فلانًا يتكلم عنا. قال: سبحان الله! نطقتم بالحجة التي أريدها من أفواهكم، فالمقدَّم يقرأ عمن خلفه.

تناظر سُني مع شيعي، فقال الشيعي: نحن أوصياء علي على الخلافة. فقال له السُّني: نعم، لكن هل رفع علي سيفًا في زمن أبي بكر؟ قال الشيعي: لا. قال: فهل رفعه في زمن عمر؟ قال الشيعي: لا. قال: فهل رفعه في زمن عثمان؟ قال: لا. فقال السني: نعم، لقد كان ما كان بينه وبين معاوية، ونحن نعتقد أنه أولى بالأمر من معاوية، ثم كان ما كان من قتله - رَضِيَ اللهُ عنهُ -، فهل أُكره الحسن على تسليم الأمر لمعاوية؟ قال: لا. قال: ألا يسعكم ما وسع عليًّا والحسن من السكوت، فإما أن يكونا محقين فانتهى الأمر، وإما أن يكونا مخطئين فلستم أولى منهما بإقامة ما أماته الزمن. فأقر الشيعي بذلك وأعلنه لجماعته، فقام عليه جماعته وكفروه وانقسموا فرقتين بالعراق، وذلك في سنة ألف وثلاثمئة وسبعين للهجرة تقريبًا، ولا يزالون مختلفين من جرَّاء ذلك الأمر، والأمر لله وحده - سبحانه -.

♦ الإجابات والردود الطريفة:

ومما يذكر عن أبي العيناء أنه رجل ظريف، وصاحب دعابة، ذهب يومًا إلى باب صاعد بن مخلد فاستأذن عليه، فقيل له: هو مشغول بالصلاة. فقال: نعم، لكل جديد لذة. وكان صاعد بن مخلد قبل أن يكون وزيرًا كان نصرانيًّا، فلما أسلم كان يكثر من الصلاة.

وقال عبيد الله بن سليمان لأبي العيناء: اعذرني فإني مشغول عنك. فقال له: إذا فرغت لم أحتج إليك. يعني أنك إذا عُذرت من الوزارة لم أحتج إليك.

وشكا بعض الوزراء كثرة الأشغال، فقال له أبو العيناء: لا أراني الله يوم فراغك.

ولقيه بعض الكتاب في السحر، فقال متعجبًا من بكوره: يا أبا عبد الله أتبكر في مثل هذا الوقت؟ فقال له أبو العيناء: أتشاركني في الفعل وتنفرد في التعجب؟ وأنا أيضًا أتعجب منك.

ووقف عليه رجل من العامة، فلما أحس به قال: من هذا؟ قال: رجل من بني آدم. فقال أبو

العيناء: سبحان الله! مرحبًا بك، وأطال الله بقاءك، كنت أظن أن هذا النسل قد انقطع.

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان، فقال له: بلغني أنك لا تحسن الهجاء في الشعر. فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه خراب الأخبية. فقال: ما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزًّا يمنعنا من أن نُظلَم وأحلامًا تمنعنا من أن نَظلِم. قال: لكلماتك أحسن من شِعرك، فما العز الذي يمنعك من أن تظلَم؟ قال: الأدب المستظرف والطبع التالد. قال: لقد أصبحت حكيمًا. قال له: وما يمنعني أن أكون حكيمًا وأنا نجيُّ أمير المؤمنين.

وذكر أبو تمام مرةً بعض الأبيات من شعره، فقال له رجل: يا أبا تمام لمَ لا تقول من الشعر ما يُفهم؟ قال له: أنت لمَ لا تفهم من الشعر ما يقال؟ فأخجله.

ودخلت هند بنت المهلَّب على أحد خلفاء بني أمية، فقالت له: يا أمير المؤمنين علامَ حبست أخي؟ فقال: تخوفت منه أن يشق عصا المسلمين. فقالت له: فالعقوبة بعد الذنب أو قبل الذنب؟ فسكت.

وقيل: إن بثينة عشيقة جميل بن معمر العذري دخلت على عبد الملك بن مروان، فقال لها: والله يا بثينة ما أرى فيكِ شيئًا مما كان يقول جميل. قالت: يا أمير المؤمنين إنه كان ينظر إليَّ بعينين ليستا في رأسك.

وفي رواية قال لها عبد الملك: ويحكِ يا بثينة، ما رجا فيكِ جميل حين قال فيكِ ما قال؟ قالت: الذي رجت منكَ الأمة حين ولَّتكَ أمورها. فما رد عليها عبد الملك بكلمة.

وقف المنذر على عجوز من العرب فقال: ممن أنتِ؟ قالت: من طيِّئ. فقال: ما منع طيئًا أن يكون فيهم مثل حاتم. يعني أن الكرماء منهم انقطعوا. قالت: الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك. فعجب من سرعة جوابها وأمر لها بصلة.

قال الخليفة المأمون: دخلت على أم الفضل لما كثر بكاؤها وحزنها على الفضل، فقلت لها: يا أم الفضل لا تكثري البكاء والحزن على ذي الرياستين، فأنا لك ولد مكانه. فاشتد بكاؤها، فأعدت عليها القول. فقالت: يا أمير المؤمنين كيف لا أحزن على ولد أكسبني مثلك. فلم أجد كلامًا بعده وخرجت من عندها.

قال رجل لامرأة: إنكن صويحبات يوسف. فقالت له: ومن رماه بالجبِّ، نحن أو أنتم الرجال؟

وقيل: إن ملكًا عُرض عليه جاريتان في عُمرٍ واحد؛ إحداهن بكر والأخرى ثيب، فاشترى البكر وترك الأخرى. فقالت: اشترني أيها الملك، فليس بيني وبينها إلا ليلة واحدة.

ومن ذكاء الصبيان قيل: إن بعض الملوك رأى صبيًّا فناداه ليتفاءل في صباحه، وسأله عن اسمه؟ فقال: بشير. قال: اسم أبيك؟ قال: بشر. قال: فاسم أمك؟ قال: بشرى. قال: ما تقرأ؟ قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]. فأمر له بصلة الصبيان، فلم يقبلها هذا الصبي. فسأله ما السبب؟ قال: أخاف من أبي أن يعاقبني. فقال له: أخبره أن الملك أنعم عليَّ. فقال: لا يصدقني أن هذا عطاء الملوك - يعني أنه عطاء قليل. فأمر الملك بإجزال العطاء له حتى يرضى.

وحُكي أن البادية قُحِطت في أيام هشام بن عبد الملك، فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلا دخل حتى الصبيان. فوثب درواس حتى وقف بين يديه مُطرِقًا، فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نَشرًا وطيًّا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته. فأعجبه كلامه، فقال: انشره، لله درُّك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث؛ سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت للعباد فعلامَ تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين. قال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر بالبوادي بمئة ألف دينار، ولهذا الشاب بمئة

ألف درهم. ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين. فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم.

مر الكُمَيتُ على الفرزدق وهو ينشد شعرًا، فقال الفرزدق للكميت وهو غلام: أيسرك أن أكون أباك؟ فقال: أما أبي فلا أبغي به بدلًا، ولكن يسرني أن تكون أمي. فحُسر الفرزدق وقال: ما مر بي مثلها.

قال أبو عاصم النبيل: رأيت أبا حنيفة في المسجد الحرام يفتي، وقد اجتمع الناس عليه وآذوه، فقال: ما هاهنا أحد يأتينا بشرطي؟ فقلت: يا أبا حنيفة تريد شرطيًّا؟ قال: نعم. فحضرت عنده، ثم قمت ووقفت بجانبه. فقال: أين الشرطي؟ فقلت: إنما قلتَ: تريد شرطيًّا، ولم أقل لك: سأجيء به. فقال: انظروا، إني أحتال للناس وأذكر لهم وجوه الحيل، وقد احتال عليَّ هذا الصبي.

وقال عمر بن شَبَّة: أُتِي مَعْن بن زائدة بثلاثمئة أسير، فأمر بضرب أعناقهم، فتقدم غلام منهم فقال: يا معن لا يُقتل أسراك وهم عطاش. فقال: اسقوهم ماء. فلما شربوا قام الغلام، فقال: أيها الأمير لا تقتل أضيافك. فأطلقهم كلهم.

وقال المنصور لبعض الخوارج وقد أُتِي به إليه أسيرًا: أخبرني أيُّ أصحابي كان أشد إقدامًا في مبارزتكم؟ فقال: ما أعرف وجوههم مقبلين، إنما أعرف أقفاءهم، فمُرْهم أن يدبروا لأعِّرفكَ أشدهم إدبارًا.

وقيل لبشار بن برد الأعمى الشاعر، قال له رجل: ما أخذ الله كريمتي عبد إلا عوضه خيرًا منهما، فما عوَّضك؟ قال له: عدم رؤيتي أمثالك.

وقال نصر بن سيَّار: قلت لأعرابي: هل حصلت لك تخمة قط؟ قال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا. فيقال: إن نصرًا جاءه المرض وحُمَّ بسبب هذا الجواب أيامًا.

وكان ببغداد رجل يُذكر بالصلاح والزهد يقال له: رُوَيْم، فوُلِّي القضاء، فقال الجُنيد: من أراد أن يستودع سره من لا يفشيه فعليه برويم الذي تولى القضاء؛ فإنه كتم حب الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها.

وعُرض على المتوكل جارية، فقال لها: بكر أنتِ أم ماذا؟ فقالت: أم ماذا. فضحك وابتاعها.

وقيل لبعضهم وقد حضرته الوفاة: أوصِ بشيء للمساكين. قال: أوصيهم بتجارة لن تبور. قالوا: وما هي؟ قال: المسألة ما عاشوا.

وقيل: إن أحد الأمراء الظالمين أُتِي بأحد الظرفاء الأذكياء، فقال له: إن من الملوك السابقين كانوا يسمون بالواثق بالله والمستعين بالله والمقتدر بالله، فما ترى أن تعطيني من الكنى؟ قال: واللهِ إن السابقين لم يتركوا لكم شيئًا من هذه الأسماء، فلم يبق لكم إلا كنية: أعوذ بالله.

وذُكر في بعض الكتب: أن قاضيًا كان فقيرًا، فلما كان عيد الأضحى قال لزوجته: لا بأس علينا بذبح هذا الديك الذي لم نملك غيره. فبلغ ذلك جيرانه، فبعث هذا بكبش وهذا بكبش، فلما رجع القاضي من صلاة العيد وجد في الدار ثلاثين كبشًا، فقال لزوجته: ما هذا؟ فأخبرته الخبر. فقال: أكرمي هذا الديك، فلعله من ذرية إسماعيل، فإن الله فداه بكبش واحد، وديكنا فداه بثلاثين كبشًا.

وحُكم على رجل بالإعدام، وبينما هو يجهَّز للقتل سئل عن وصيته، فطلب إحضار مطلقته، فلما حضرت طلب السماح منها أن تبعِد أبناءه كي لا يشاهدوا منظره المؤلم. فقالت له: حسب عادتك، لا تفرحهم بشيء أبدًا.

وكان لرجل امرأة شريرة يتسلى عنها بالكتاب ويتشاغل عنها بالقراءة، فقالت له: ليتني كنت كتابًا لتلزمني. قال: بل ليتكِ كنت تقويمًا. قالت: لمَ؟ قال: لأنه يُستبدل كل سنة.

وقالت امرأة لزوجها - وكان أصلع -: لست أضبط إلا شعرك حيث فارقك فاستراح منك.

وطلق رجل امرأته، فقال: أبعد صحبة خمسين سنة تطلقني؟ فقال: ما لك عندنا ذنب غيره.

وجاء رجل من الحمقى إلى الإمام الشعبي وهو جالس مع امرأته، فقال: أيكم الشعبي؟ فقال: هذه، مشيرًا إلى امرأته. فقال: ما تقول - أصلحك الله - في رجل شتمني أول يوم من رمضان هل يؤجر؟ فقال: إن كان قال لك: يا أحمق، فإني أرجو له أن يؤجر.

وقد سئل الشافعي - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - فقال رجل له: حلفت بالطلاق على امرأتي إن أكلتْ هذه الثمرة أو رمت بها؟ فقال: تأكل نصفها وترمي نصفها.

♦ من طرائف المتسولين:

ومما ذكر من طرائف المتسولين، قيل: كان في بغداد سائلان أعميان؛ أحدهما يتوسل بأمير المؤمنين علي، والآخر يتوسل للناس بحبهم لمعاوية، ويتعصب لكل واحد منهما عدد من الناس، ويجمعان المال، فإذا انصرفا يقتسمان المال، وكانا يحتالان بذلك على الناس.

وكان أبو الحسين بن سمَّاك يتكلم على الناس بجامع المدينة، وكان لا يحسن من العلوم شيئًا إلا ما شاء الله، وكان يتكلم في أمور التصوف، ويذكر أحوال المتصوفة. فكتب إليه بعض الناس رقعة: ما يقول السادة الفقهاء في رجل مات وخلَّف كذا وكذا؟ ففتحها فتأملها فقرأ: ما تقول السادة الفقهاء في هذا الأمر؟ فلما رآها في الفرائض وهو لا يحسن إلا مدح المتصوفة، رماها من يده وقال: أنا أتكلم على مذاهب قوم إذا ماتوا يخلِّفوا شيئًا. فعجب الحاضرون من حدة خاطره وسرعة بديهته.

وروي أن رجلين من آل فرعون سعيا برجل مؤمن إلى فرعون، فأحضره فرعون وأحضرهما وقال للساعيين: من ربكما؟ قال: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ قال: ربي وربهما. قال فرعون: سعيتما برجل على ديني لأقتله، فقتلهما. قالوا: فذلك قول الله - تعالى -: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وقال رجل لآخر بعدما انتهى من مناظرته: أظنك أحمق؟ فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنه. وكان هذا القائل رجلًا كبيرًا في السن.

وكان حُوَيْطِبُ بن عبد العزى قد بلغ مئة وعشرين سنة؛ ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، فلما وَلِي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب، فقال له مروان: ما نيتك؟ فأخبره. فقال له مروان: تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث. فقال: والله لقد هممت بالإسلام غير مرة، وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني ويقول: تدع دين آبائك لدين محمد. فسكت مروان وندم على ما كان.

وقيل: إن يهوديًّا ناظر مسلمًا، فقال اليهودي: ماذا أقول في قوم سماهم الله: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]؟ يعني النبي - صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّم - وأصحابه يوم حنين. فقال المسلم: فإذا كان موسى أشد منهم إدبارًا؟ فقال له: كيف؟ قال: لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، وهؤلاء ما قال فيهم: ولم يعقبوا. فسكت اليهودي.

وقال بعض الأدباء لصديق له: أنت والله بستان الدنيا. فقال الآخر: أنت النهر الذي يشرب منه ذلك البستان.

وناظر الأصبهاني إلى رجل يُسارُّ رجلًا، فقال: فيمَ تكذبان؟ قال: في مدحك.

ولعلي بعد هذه المحاولة أكون قد وُفقت لذكر بعض النماذج والأمثلة من الردود السريعة وإجابات الأذكياء.

وأسأل الله - تعالى - أن يوفقني وإيَّاكم لكل خير.

اللهم عافنا واعفُ عنا وتب علينا؛ إنك أنت التواب الرحيم.

اللهم بارك لنا في أعمالنا وأعمارنا وأولادنا وأموالنا، ونسألك اللهم الفردوس الأعلى من الجنة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.